روضة الحكايات!!

(٨)

إنَّها الأمانةُ العلميّة

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

أنا في حيرةٍ يا أمّي!!

جال في خاطر (وليد) خواطرُ عدة : لماذا لا أفعل كما فعل أصدقائي ؟... وهل إلقاءُ محاضرةٍ بين الناس أَمْرٌ سَهْلٌ ؟.. وكيف تكون البداية.. ؟ ومن أين سآتي بالمعلومات ؟... ومن الذي سَيُنقّح لي الكتابةَ قبل أن أُلقيها علىٰ الناس ؟

أسئلة كثيرة.. وتفسيراتٌ أكثر... مما أَرْبَكَ تفكيرَه... وجعله يُصاب بالحَيرة ، لكن والدته أَبدتْ رأيها وقالت : لماذا لا تذهب إلىٰ خالك (بلال) فهو مختصٌّ بعلوم التاريخ ، وله اهتمامات ثقافية متعددّة ؟!

... وفرح (وليد) بذلك... وشكر والدته.. وقال لها : أنا ذاهبٌ إلىٰ خالي حالاً.. فعسىٰ أن يفتح الله

علينا وعليه.. ويكون فينا الخير... و يُجري علىٰ يدينا النفْعَ للناس... .

فقالت الوالدة : لكنْ يا وليدُ ، أريد أن أقولَ لك شيئاً ، وأتمنّىٰ أن تسمعه .

فقال (وليد) : وما ذلك يا والدتي ؟

قالت : إنّ خالَك كثيرُ المشاغل... فلديه التزاماتٌ مع الطلاب... مساءً وصباحاً ، إضافةً إلىٰ أنه يكتب مَقالاتٍ لبعض المجلات ، وغير ذلك... .

فإذا وصلتَ إليه ، ورأيتَه مشغولاً ، فلا تطلبْ منه شيئاً... ، ثم ما رأيك أن أرافقَكَ في الذهابِ إليه ؟!

... وقفز (وليد) فرحاً... ثم قبّل والدته... وقال : أنتِ أفضلُ أمّ في العالم ، لقد أَنقذْتِني من حيرتي... وتريدين مساعدتي ، فجزاك الله عنّي كل خير...

وبعد أقلَّ من ساعة كان (وليد) مع والدته أمام بيتِ خالِه... .

..... ولما قرع (وليد) جَرَسَ البيت ، إذا بالباب يُفتَح.. وخرج خاله (بلال)... وكان لقاءً جميلاً ورائعاً...

ورحَّبَ الخال بأخته وفرح بحضورها كثيراً ثم أخذ ابن أخته (وليد) وضمّه إلىٰ صدره.. ثم مازحه قائلاً : هل سمعتَ بالمثل القائل :

(الولد إن بارَ ـ إن كَسَدَ ـ ثُلُثاه للخال ؟!)...

فقال (وليد) : وأنا أفتخر بهذا الخال... . وأتباهىٰ أمام أصدقائي... وكثيراً ما كنت أريهم بعضَ المجلاتِ التي تكتب فيها...

ثم أُدخلوا إلىٰ البيت... . وجلسوا علىٰ الكراسي البيضاء ، تحت عريشة العنَب... وأمام شلال الماء... ، ثم نادىٰ الخال الأولاد والزوجة قائلاً :

تعالَوا... سلّموا علىٰ أختي... وابنها... . واحملوا لنا قليلاً من الشراب الحلو المثلّج... .

وبالفعل كان لقاءً رائعاً... . حيث تبادل الجميع أطراف الحديث والذكريات الجميلة وما إلىٰ هنالك...

وعلمت والدة (وليد) أن أخاها (بلال) لديه ساعة فراغ ، فبادرته بالقول : إن ابن أختك يرغب في أن يجمع بعض المعلومات عن واحد من رموزنا التاريخية ، وخاصةً من العلماء... ويصوغ ذلك كتابةً... ثم يلقيه محاضرةً في المعهد... كما فعل بعض أصدقائه... ، وقد اقترحتُ عليه أن يستشيرك في ذلك...

... . اعتدل الخال... وقام إلىٰ جوار (وليد)... ووضع يده علىٰ كتفه.. وقال : أنا سأكون معك حتىٰ النهاية... . وأريدك أن تُثبت لي كفاءتك

وقدرتك في البحث والكتابة والإلقاء... .

وبعد مشاورات.. واقتراحات... أخرج (وليد) من جيبه ورقةً وقلماً ، وكتب بعض الملاحظات ، وأسماءَ بعضِ المراجع والمصادر ، ثم قررا أن تكون الدراسة حول العلامة الإمام أبي عبد الله القرطبي رحمه الله تعالىٰ...

... وبعد أيام كان هذا الملخّص النافعُ والمفيدُ.. ، وكانت محاضرةً قيمّة حقاً :

* * *

في رحاب الأخلاق الحميدة

وفي بداية المحاضرة أثنىٰ (وليد) كثيراً علىٰ الإمام القرطبي ، وقال :

لقد أثنىٰ عليه العلماءُ ، وخاصةً ما يتعلّق بأخلاقه الحميدة ، حيث عاش حياتَه زاهداً في متاع الدنيا ، مشغولاً بما هو أهمّ بكثير ، ولذلك لم يتركْ أيامَه تمضي سُدىً ، وإنما استفاد وأفاد ، ولم يتقرّبْ أو يَتَزَلَّف إلىٰ أحدٍ من الخَلْق ، بل علّق أمورَه كلَّها بالله سبحانه ، وكان كثيراً ما يقول :

(فمن أطاع مولاه ، وجاهد نفسَه وهواه ، وخالف شيطانه ودنياه ، كانت الجنة نُزُلَهُ ومأواه ، ومن تمادىٰ في غَيّه وطُغيانِه ، وأرخىٰ في

الدنيا زِمامَ عِصيانِه ووافق نفسَه وهواه في مُناه ولذّاتِه ، وأطاع شيطانَه في جميع شهواته ، كانت النارُ أولىٰ به) .

إضافة إلىٰ أنه كان ليّنَ الجانبِ ، عَفَّ اللسانِ ، رقيقَ الاعتبار ، قويَّ العزيمة ، خاصة بما يتعلّق بالبحث والكتابة... ويكفي دليلاً علىٰ ذلك تفسيرُه المسمّىٰ (الجامع لأحكام القرآن) وهو مطبوع في أكثر من عشرة مجلّدات تزيد عن ثلاثة آلاف صفحة!!

* * *

نشاطاته الثقافية

تابع (وليد) الحكاية بالقول :

تتلمذ (القرطبي) علىٰ عددٍ كبيرٍ من العلماء ، أهمهم (ابن أبي حجّة) (وعلي بن قطرال) و(ابن روّاج) و(اللّخمي) و...

وأما أصحابُه من العلماء ، فكان منهم (الإمام القرافي) و(أبو عبد الله القصري) و... ، وأما تلامذته فكُثر... ، والمهم أنه تعلّم وعلّم ، واستفاد وأفاد وأجاد... وأما مصنفاته : فهي كثيرة ، أهمّها :

(الجامع لأحكام القرآن) : وهو كما قال (ابن فرحون) : (وهو من أجلّ التفاسير ، وأعظمها نفعاً ، أَسقطَ منه القصص والتواريخ ، وأثبت

عوضَها أحكامَ القرآن ، واستنباطَ الأدلة ، وذِكْرَ القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ)..

إضافة إلىٰ كتب أخرىٰ ، مثل (التذكار في أفضل الأذكار) ، (والأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا) و(قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصناعة)...

وقد عُرف عنه الأمانة العلمية ، حيث كان يَعْزُو الأمور إلىٰ أصحابها...

كما عُرف عنه الاهتمام بالتدريس والتصنيف ، والعزيمة في كل المجالات التي يرىٰ أنها تؤدي إلىٰ الخير والنفع..

لذلك كان يشتري ما يستطيعه من الكتب ، أو ينسخ بعضَها الآخر...

لكنّ السببَ الرئيسي في تقبّل الناس لعلومه ،

وخاصة كتبه ، هو عدم تعصّبه لمذهبٍ أو فكرة أو نحو ذلك .

فعلىٰ الرغم من كونه مالكيَّ المذهب ، لكنا نجده في كثيرٍ من الأحيان يترك قول مذهبه ويأخذ بأقوالِ المذاهبِ الأخرىٰ ، فهو يدور مع الحقِّ ، ولا يتحجّر عند أمر ، ويرفض التقليدَ الأعمىٰ .

وهذا عينُ الصواب ، وقد أرشدَنا القرآنُ إلىٰ ضررِ آفةِ التقليدِ الأعمىٰ ، وحذّرنا من ذلك ، حيث شَنَّ حملة قوية علىٰ الذين قَبِلوا رأيَ ساداتهم ، من دون أن يُحاكموا ذلك في عقولهم ، فقال الله تعالىٰ في مَعْرِضِ ذمِّهم : ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

وقال سبحانه وهو ينقل سببَ عدم اتباعِ الكَفرةِ سُبلَ الهداية : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

بطاقته الشخصية

وبعد حديثٍ مستفيضٍ ومُمتع ، قال (وليد) للحضور : هل تريدون أن أنقلَ إليكم البطاقةَ الشخصيةَ للإمامِ القُرْطُبيّ ؟

... وأشاروا عليه بالإيجاب ، فقال - وباختصار - :

اسمه : محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري .

وكنيتُه : أبو عبد الله .

نشأ في قُرْطُبَةَ ، ونُسِبَ إليها ، وأما مولده فكان حوالي (٦٠٠هـ) .

وعلىٰ الرغم من كثرة الفتنِ في الأندلس آنئذٍ ، واقْتِتالِ الأمراءِ بعضِهم مع بعض ، وهجوم الإسبان علىٰ مدن الأندلس ،و... .

وعلى الرغم من ذلك كله نرىٰ انكبابَ (الإمامِ القرطبي) علىٰ علومِ العربيةِ ، وأمورِ الشريعةِ ، كيف لا ؟ (وقرطبةُ) كانت حاضرةَ العلمِ والثقافة ،... فقد أمستْ عاصمةَ الخلافة الأندلسية وغَدَتْ عاصمةَ علمٍ وصناعةٍ ، وفن وتجارة ، وفي ضاحيتها ثلاثةُ آلاف قرية ، في كل قرية فقيهٌ ، وكان بالربَضِ الشرقي من قرطبةَ مئةٌ وسبعون امرأة ، كلهنَّ يكتبْنَ المصاحفَ بالخط الكوفي ، هذا في ناحيةٍ من نواحيها ، فكيف بجميع جهاتها ؟! .

هذا ، إضافة إلىٰ المكتبات العامةِ العامرةِ بالكتبِ النفيسةِ والمَخْطوطاتِ النادرةِ مثال ذلك : مكتبة الحكم الثاني ، فقد كانت تحتوي على (٢٠٠) مئتي ألف مجلد!!

.... وبقي الإمام القرطبي في قرطبة حتىٰ سقوطِها ، وخرج منها سنة (٦٣٣هـ) ؛ حاملاً

ثقافة واسعة ، وآل به الأمر إلى أن استقرَّ في مصر .

وكانت مصر وقتئذٍ تعيشُ تحتَ سيطرةِ المماليكِ ، حيث استطاعوا ردَّ العدوانِ الصليبي ، وذلك بقيادةِ (سيف الدين قطز).. في معركة عَينِ جالوت...

أجل :

لقد عاشَ القرطبيُّ حياةً حافلةً بالمعرفةِ والعلم ، حتىٰ شاءُ الله له الانتقالَ إلىٰ العالم الآخرِ ، فمات سنة (٦٧١هـ)... ودُفن في مصر... ، فسلامٌ عليه في الأوّلينَ ، والآخِرينَ ، ويوم يُبعثون .

والحمد لله رب العالمين

* * *